سيدة القصر

رواية من الخيال العلمي

سيدة القصر

رواية من الخيال العلمي

د. طالب عمران

اسم الكتاب: **سيدة القصر**.

اسم المؤلف: **د. طالب عمران**.

الترقيم الدولي: 978-9933-567-15-6 :**ISBN**

الناشر: **دار عقل للنشر والدراسات والترجمة**.

سنة الطباعة: **2017**.



يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار عقل للنشر والدراسات والترجمة

سورية - دمشق - جرمانا - ص.ب: 249 جرمانا

هاتف: 00963115618956

: 00963115637060

فاكس: 00963115632860

aklpublishing@gmail.com

تقديم

هل يمكن للإنسان أن يتغلب على الزمن ويعيش في شباب دائم؟

إنه سؤال يبدو جوابه المنطقي واضحاً تماماً... فمهما بذل الإنسان من جهد في سبيل الحفاظ على جسمه نضراً فتيّاً باختراع المقوّيات والأدوية المنشّطة، فإن جسمه سيشيخ لا محالة حتى لو نجح في مد عمره لسنوات أخرى ولو نجح في الظهور بخلايا خالية من التجاعيد بفضل عمليات تجميل متتابعة..

الزمن هو الحقيقة الواقعة في حياة الإنسان. ولو فكّر أنه سينتهي بنهايتها ، لخفّف الكثير من طموحاته الأنانية ومحاولاته الشريرة في الوصول إلى الغنى والجاه والثروة بشكل غير أخلاقي..

للزمن اتجاه واحد ولا رجعة إلى الوراء، فعمر الكون

يـزداد، وعمـر الـنجم يـزداد، وعمـر الأرض يـزداد، وعمـر الإنسـان يـزداد، فتـوّة ثـم شـيخوخة.. لا عـودة للفتـوّة مـن الشيخوخة، ولا يمكن للشيخ أن يصبح فتيّاً..

*　　　*　　　*

الفصل الأول

كان شاباً كثير القراءة، متفوّقاً في دراسته، يعيش حالة رتيبة في قريته النائية.. ولكن ما حدث نقله فجأة من رتابة حياته البسيطة إلى جوّ ربما لو قرأ عنه في كتاب يحكي عن الغرائب، لما صدّق بوجوده أبداً..

نال شهادة الثانوية بتفوّق وانتقل إلى العاصمة ليدرس في جامعتها، في كليّة الطبّ.. لم تكن حالة أهله الماديّة سيّئة، لذلك اختار أن يستأجر منزلاً مع أحد رفاقه بدلاً من السكن في المدينة الجامعية في جوّ صاخب، وهو الذي اعتاد الهدوء في جوّ ذي طبيعة خلاّبة فيها سحر الصمت وجمال المنظر، وسط أرض تربتها الخصبة تُنبت الخضرة والزرع.

كان والده يعمل مزارعاً صغيراً، وقد ربّاه على عشق الأرض والعناية بها.. وكثيراً ما كان عماد منذ نشأته

يشرد في الحقول والمزارع وهو يتأمل الطبيعة من حوله، وقد أعطته تجاربه مع الطبيعة والأرض وقراءاته الغزيرة للكتب، رهافة في الحسّ وأسلوباً شاعرياً يكتب به قصصاً وخواطر غلبت عليها الرومانسية...

في بحثه عن سكن عثر على شقة صغيرة في ضاحية قريبة من كليته الجامعية، كانت مكوّنة من غرفتين وصالة وتوابعها، وهي تابعة لقصر قديم ما زال يحتفظ بنضارة بنائه، وقد أطلق (عادل) رفيق عماد على الشقة الصغيرة المنزوية قرب بناء القصر القديم، اسم شقة الخدم..

- ألا ترى يا عماد أنها تقع قريبة من مدخل الحديقة المحيطة بالقصر، كأنها بنيت لبوّاب، أو لحارس، أو لبستانيّ يعتني بالقصر ويحرس بابه الرئيسي..

وقد راق لعماد هذا الوصف:

- فعلاً إنها تبدو أكثر حداثة من بناء القصر، ولكن

المهم يا عادل أن نتأقلم على العيش فيها، فميزتها أنها بعيدة عن الصخب وقريبة من الجامعة وهذا يكفي...

وبعد يوم واحد من سكنهما بالشقة همس عماد لعادل:

– أسمعت ذلك الأنين الذي يقطّع القلب؟ ليلة أمس، كان صادراً من القصر ولم يدم طويلاً ولكنه أقلقني فنمت متأخراً..

– أنين..!

– نعم.. أنا أحسدك على سرعتك في النوم، وعلى ثقل هذا النوم..

– أنا معتاد على ذلك يا عماد، لأنني أعمل كثيراً خلال اليوم، كنت أساعد والدي في بيع الخضار منذ السابعة من عمري، وورثت عنه الاستغراق سريعاً في النوم العميق، ولكن كيف كان ذلك الأنين؟

– كأنه رجل يتوجّع..

– عجيب.. من يكون ذلك الرجل يا تُرى؟

- لا أدري.. خطرت على بالي فكرة طرق باب القصر والاستفهام عن سبب ذلك الأنين، فقد يكونون بحاجة لمساعدة...

ضحك عادل بصوتٍ مسموعٍ:

- مساعدة؟! منك؟!

- لِمَ لا؟

- قصر ضخم مليء بالخدم والحشم، يحتاج إلى مساعدة من طالب صغير السن! لا تكن سخيفاً يا صديقي، ما لنا ولهم.. لنغلق آذاننا وأعيننا وأفواهنا عن هؤلاء الناس، ليس لنا علاقة بهم من قريب أوبعيد..

أطرق عماد وهو يهز رأسه:

- ربما كنت محقاً..

تذكر عماد كلام صاحب المكتب العقاري عن سيّدة القصر " السيّدة أميرة ". ((إنها امرأة في الخامسة والثلاثين، طويلة القامة، متناسقة الجسم، تبهر أحياناً

بأناقتها.. تعيش مع أولادها الأربعة الصغار ووالدتها العجوز. حاولا عدم إزعاج السيّدة، إنها كريمة لطيفة، تريد أجرة الشقة في وقتها، الأول من كل شهر.. لا تكونا مثل بعض المستأجرين السابقين، الذين تهرّبوا من دفع الأجرة، ثم تركوا الشقة دون أن يُخبروا السيّدة بذلك.. ولم تحبّ السيدة تقديم أسمائهم للمحاكم، رغم أنها تستطيع ذلك بوجود العديد من الشهود على تهرّبهم من الدفع، فقط أعلمت الشرطة..)).

رغم أن ثرثرة صاحب المكتب العقاري لم تعجب عادلاً، إلا أن عماد أحبّ أن يسأله بضعة أسئلة عن حياة من في القصر لولا تدخل عادل الذي أوقفه بكلامه الحاسم: ((ليس لنا علاقة بأحد، لا نريد سماع القصص والحكايات عن الناس، نحن استأجرنا الشقة لندرس فيها، لا لنقيم علاقات مع أحد..)).

صحا عماد في ذلك اليوم على صوت سيارة تتوقف

أمام الباب الخارجي، ووصله صوت المفتاح يدخل في الباب الحديدي الذي انفتح بصوت مسموع، ثم أُغلق بقوّة.. سمع وقع حذاء نسائي، نظر من نافذة غرفته المعتمة حيث كانت السيدة صاحبة القصر تدخل بلباسها الأنيق وقامتها الرشيقة:

((يا إلهي! تبدو آية في الجمال تحت ضوء المدخل.. إنها تدخل بهدوء صوب باب القصر، تفتحه... عجيب أمر هذه المرأة.. ما تزال شابة، لِمَ لم تتزوج؟ امرأة ثريّة جميلة تترمّل ربما من أربع أو خمس سنوات كما يقولون.. عُرض عليها الزواج كثيراً فرفضت العروض، أمر غريب! آه.. يجب أن أنام، الساعة زادت عن الثانية والنصف..)).

غفا عماد متعباً، ولكنه رأى في الحلم كأنه يعبر غابة من الشجر الكثيف والظلام يخيّم، وقد بدا الطريق عبر الأشجار مخيفاً موحِشاً، وهبّت رياح عاصفة تعبث

بـأوراق الشـجر فـزادت المكـان وحشـة وخوفـاً.. وصـله صوت أنين امرأة:

– عماد.. عماد..

– من ينـاديني!؟

– أنا أميرة، صاحبة القصر، أرجوك خلصني..

– أين أنتِ؟

– هنا قرب القبر..

– أيّ قبر!؟

كان الظلام شديداً، فلم يتبيّن المكان الذي يصدر منـه الأنين..

– أنـا هنـا.. ألا تـرى الشـاهدة المرتفعـة!؟ لقد حفـروا لـي حفرة إلى جانبها، وقيّدوني داخلها، آه.. سأموت..

((الصـوت يـأتي مـن هنـا.. يـا إلهـي.. إنـها فعـلاً داخـل الحفرة.. سأشعل عود ثقاب.)).

رآها في كامل أناقتها مقيّدة داخل الحفرة، وفجـأة نـهضت

من مكانها وهي تضحك.. خلّصت نفسها من الحبال، واتجهت نحوه.. بدت عجوزاً طاعنة في السن..

– تعال إليّ، لن أتركك.. تزوجني..

حاول أن يبتعد عنها، ولكنها قبضت على ذراعه:

– لن أتركك أبداً.. أنت شاب قويّ..

– ابتعدي عني.. ابتعدي.. آه..

استيقظ مرعوباً، وهو يسمع دقات على باب غرفته..

– عماد.. إنها السابعة، يجب أن تذهب إلى الجامعة، هل استيقظت؟

أجاب عادلاً على سؤاله بهمهمة، وطيف أميرة ما زال يتردّد في مخيّلته...

يا لذلك الكابوس المرعب!؟

* * *

الفصل الثاني

ورغم محاولات عماد الانغماس في دراسته، فقد تكررت أحلامه المزعجة. وفي إحدى الليالي، وقد كان قلقاً مرهقاً من الأرق والأفكار الغريبة التي تنتابه، خرج يتمشّى أمام الشقة الصغيرة، والساعة تقارب الثانية بعد منتصف الليل. ((يبدو أنني أعيش حالة صعبة، يجب أن أضع حدّاً لهذه التساؤلات التي تتدافع في ذهني، والتي تتحوّل حين النوم إلى كوابيس.)).

فجأة وصله صوت الباب الحديدي وهو ينفتح، يبدو أن السيّدة قد عادت من سهرتها اليومية. حبس أنفاسه حتى لا تلحظه، وتابعها وهي تتجه نحو مدخل القصر بكامل أناقتها، أحسّ أنه سيعطس، قاوم بكل قوّة، يبدو أن رطوبة الليل أثّرت عليه، ورغم مقاومته الشديدة، فإن سلسلة متلاحقة من العطسات انتابته.

توقفت السيّدة بفضول، ثم اقتربت من مكانه:

- ها... أنت؟

- أنا آسف. أصابني الأرق قليلاً فخرجت أتمشّى..

- بالعكس إنها فرصة طيّبة لنتبادل الحديث، هل زميلك نائم؟

- نعم.. ونومه ثقيل، أترغبين بالدخول؟ سأجهّز الشاي..

- لا.. لا داعي سنتبادل الحديث هنا..

- سأحضر كرسيين إذن..

- كما تشاء..

كان عماد يشعر بسعادة وقد سحرته شخصية السيّدة، أحضر كرسيين بهدوء وتأملها تجلس ورائحة عطرها تنفذ إلى خياشيمه. كان ضوء المصباح أمام المدخل ينعكس على وجهها فيعطيها صورة جميلة بالغة الروعة:

- مرتاح في السكن هنا؟

- نعم.. إنه مكان هادئ..

تنهدت بحرقة:

- هذه ليست أول مرة نؤجر فيها هذه الشقة، لولا الحاجة ما قبلت بتأجيرها أبداً.. لا تستغرب، أنا فعلاً في ضيق ماديّ، أنفقت ما خلّفه لي المرحوم وبعتُ قسماً كبيراً من مجوهراتي. ولكن أسرتنا كثيرة العدد يزيد عددها عن خمسة عشر شخصاً مع الخدم. أخي المريض، ووالدتي وأربعة أطفال ثم الخدم. قد تسأل نفسك لماذا نحتفظ بثمانية من الخدم!؟ إنه عدد كبير بالنسبة لأسرة في حجم أسرتنا..

- بالفعل..

- ولكن غالبيتهم ولدوا وتربوا هنا.. ولا يعرفون شيئاً خارج القصر، أصبح القصر جزءاً من حياتهم، هو عالمهم، ولو طردتهم إلى الخارج لماتوا جوعاً..

- معكِ حق..

- أرجو أن لا أكون أثقلت عليك بحديثي..

- لا أبداً.. أنا سعيد جداً بهذه المصارحة..

- منذ أن رأيتك مع السمسار وأنت تعرض عليّ استئجار البيت أحسست بارتياح لك، تبدو شاباً رصيناً هادئاً..

همس يشكرها على مجاملتها.. تنهدت ثم تابعت حديثها:

- أرجو أن لا يكون أخي المريض يزعجكما بأنينه المتكرر أحياناً..

- لماذا يئن؟

- إنه مصاب بعقله، لم أرَ من اللباقة أن أتركه في مستشفى الأمراض العقلية، فأحضرته إلى هنا ليعيش معنا، كلّفت أحد الخدم بالإشراف على رعايته.

- مسكين.. كيف حدث وأصبح مريضاً.

- فقدَ زوجته وأولاده في يوم واحد نتيجة انفجار جرّة

غاز..

شعر عماد بالرثاء لها، وعاد إلى التحديق بها. كان فستانها قد انحسر قليلاً، وهي منشغلة بحديثها، فكشف عن ساقين جميلتين بديعتين، جعلتا عماد يزدرد لعابه بصعوبة. سمعا صوت انفتاح باب القصر ، نهضت سريعاً:

- إنها أمي يبدو أنها قلقت لتأخري. ألقاك في الغد، تصبح على خير..

انفلتت برشاقة صوب باب القصر، وعماد مشدوه يتابعها بإعجاب، رفعت يدها تحيّيه قبل أن تدخل عبر الباب وتغلقه:

((آه كل شيء يبدو واضحاً، إنها سيّدة محترمة.. ولكن لماذا لا تعطي أخاها حقنة مهدّئة تريحه من آلامه ومن إطلاق هذه الأصوات المخيفة في الليل؟ سأحدثها بذلك غداً، تبدو سيّدة جميلة طيّبة.. ربما أستطيع مساعدتها

في بعض الأمور.)).

لأول مـرّة منـذ أن سـكن البيـت، نـام بعمـق وطيـف السيّدة يداعبه، ورائحة عطرها تنفذ إلى أنفه ولا تغادره..

*   *   *

الفصل الثالث

لم يتمكن عماد أثناء المحاضرات من نسيان لقاء الأمس، كان شارداً حالماً، نبّهه أحد زملائه أكثر من مرّة إلى ضرورة متابعة المحاضرات.. ولكنه ظلّ على شروده وقد شعر بجاذبية السيّدة الجميلة تسيطر عليه تماماً..

وفي الليلة التالية وبعد عودتها من السهرة، دخلت السيّدة غرفة عماد وتناولت الشاي وحكت له عن متاعبها وهمومها، وازدادت علاقته بها شدّة، خاصة بعد أن حكت له عن حياتها الخاصة ومعاناتها بعد رحيل زوجها، وقوّة إرادتها في مقاومة إغراءات الزواج من رجال ذوي مراكز مرموقة..

وتكررت اللقاءات، وكان عماد شديد الحذر في إخفاء ما يدور بينه وبين السيدة عن عادل شريكه في السكن.. وبعد أيام تحوّل تعلّق عماد بسيّدة القصر إلى

غرام مشبوب بالعاطفة، خاصة وأن السيدة قد انطلقت معه بلباسها المتحرر وإغراءاتها التي كانت تظهرها كأنها غير منتبهة لنفسها.. وباح لها عماد بحبّه وتحوّلت علاقتهما في اتجاهٍ آخر..

لاحظ عادل بعد أيام التغيّر الذي طرأ على عماد، وفسّره بأن عماد يرهق نفسه بالدراسة لذلك فاتحه بالأمر:

– أنت لا تراعي صحتك، تبدو مرهقاً متعباً كأنك لا تنام، لماذا هذه الدراسة المكثّفة؟ صحيح أنك طالب متفوّق، ولكن انتبه لصحتك..

– لا تخف يا عادل أنا بخير..

– سأهيّئ لك إجازة ممتازة بعد الفصل الدراسي الأول، المهم أن تنتبه لنفسك.

وفي تلك الليلة التقى عماد وأميرة سيدة القصر، وصارحها بما جرى بينه وبين عادل:

- اعتقدت أنه كشف أمرنا.

- نعم.. ولكن الحمد لله أنه يظن أنني أدرس كثيراً..

- ولكن أريد أن أطمئن عليك أنا أيضاً، هل دراستك جيّدة؟

- لا تقلقي يا حبيبتي. أموري بخير..

تنهدت أميرة:

- آه يا عماد، تعرّفي عليك ردّ لي الروح..

- كأن علاقتنا لا تعجب والدتك..

- إنها تخاف عليّ، ولكنها تعرفني جيّداً وتعرف أن لا مبرر لخوفها..

- لم تحدثيني عن أطفالك!

- عندي ثلاثة صبيان وبنت هي الكبيرة..

- ما أعمارهم؟ لم أرَ أيّاً منهم طوال هذه المدّة..

- آه.. هناك مخرج آخر للقصر كما تعلم.. وهو منفصل عن هذا المدخل، إذ أنهم يخرجون ويدخلون من

هناك... هناك سيارة خاصة بهم وخدم مكلّفون بالعناية بهم..

- هل هم كبار؟ أم لا يزالون أطفالاً؟

ضحكت وهي تغمز:

- لستُ عجوزاً يا عماد..

- لا.. لا أقصد ذلك..

- حسناً، خمّن كم عمري؟

- في الخامسة والعشرين، تبدين هكذا فعلاً..

- وبعضهم يعطيني سنّاً أصغر من ذلك..

نظرت إلى ساعتها:

- تأخر الوقت.. إنها الثالثة والنصف صباحاً.

- لا تذهبي الآن، ابقيّ قليلاً..

- سأجلس لدقائق أخرى.. عماد لا تستغلّ طيبتي، ماذا تفعل؟

كان يشدّها نحوه بشغف:

- تعلمين كم أحبكِ، نظراتك تسحرني، ورائحة عطرك تنقلني إلى عالم الحلم.. آه يا أميرة.

- ماذا بكَ يا حبيبي؟

- لو تعلمين كم أحبكِ..

أجلسها في حضنه وغمرها بالقبل..

* * *

مع اقتراب الامتحان شعر عماد بأنه مقصّر في دراسته، وحاول أن يستعيد جزءاً مما فاته ولكن طيف أميرة كان يشدّه إليه فيغرق في الحلم، يتخيّلها بين ذراعيه يتبادلان الحب.. وفي صباح أحد الأيام، صحا على طرقات على الباب، فاندفع بكسل يفتح الباب، طالعه وجه صبيٍّ صغير:

- أنتَ الأستاذ عماد؟

- نعم.. ماذا تريد؟

- تفضل.. هذه رسالة طُلِبَ مني تسليمها لك.

أعطاه الصبي مغلّفاً، وخرج بسرعة قبل أن يستفيق لما حدث، فتح الرسالة بلا مبالاة، فقرأ العبارات التالية:

((سيدي العزيز.. لا تغرّك المظاهر، فإن للأفعى ملمساً ناعماً، خذ حذرك وانتبه لنفسك، أرجو أن تفهم هذه العبارات واحرق الرسالة فور قراءتها، وتذكر أن المظهر يخدع أحياناً..)).

فاجأته تلك العبارات، من يقصد صاحب الرسالة ((إن للأفعى ملمساً ناعماً)). هل يقصد أميرة؟ أمعقول ذلك!؟ ثم من هذا الصبي؟ هل هو ابن أميرة؟ أم صبي من الخارج استخدمه أحد الناس وانتهت مهمّته بإيصال الرسالة؟

كان ذلك الحادث سبباً في ازدياد حالة عماد سوءاً، عاش حالة من القلق والحيرة لساعات قبل أن يسقط صريع حمّى مزعجة أنهكته تماماً.. وهذا ما أضاع عليه فرصة خوض الامتحان، رغم أنه فعلياً لم يكن جاهزاً

لخوض هذا الامتحان.. وصحا بعد أيام من غيبوبته.

كان عادل يجلس قربه:

– ها قد بدأ وجهك يعود لصفائه.. الحمد لله.

– عادل، غداً يبدأ الامتحان؟

– آه يا عماد، بعد أربعة أيام ننتهي من الامتحان.. قضيتَ أياماً طويلة في غيبوبة.. لم نعتقد أنك ستخرج منها بهذه السرعة..

تنهّد عماد بأسى، واغرورقت عيناه بالدموع:

– آه يا عماد، هذه السيّدة عظيمة فعلاً، لولاها لم تشفَ بهذه السرعة.

– ثلاثة أسابيع ليست قليلة يا عادل.

– كانت تعتني بك تماماً.. تحضّر الغذاء الدسم، وتعطيكَ الدواء في وقته، وتقضي ثلاث ساعات يومياً قرب سريرك.

– آه، إنها سيّدة طيّبة..

- في الأوقات العادية، كانت تلّح عليّ أن أجلس في غرفتي وأتابع دراستي، وهي تجلس إلى جانبك تلبي طلباتك، وأنت غير واعٍ تقريباً، لست أدري ما الذي شدّها إليك؟ أنت محظوظ يا عم..

- أوه.. ليس هذا وقت المزاح..

- عندما اشتدّت عليك الحمّى وكنتَ تهذي لم تفارقك، رغم أنني سمعتك تصفها بالأفعى أكثر من مرّة..

- أنا!؟

- كنتَ محموماً، وكنت تكرّر اسمها في هذيانك: ((أميرة.. أنتِ أفعى))، ثم تعود وتقول: ((آه يا حبيبتي)). هل كنتَ تقصدها بذلك؟ أم أنكَ تحب إحدى زميلاتك؟

- آه يا عادل، عدتَ للمزاح، هل أنا متفرّغ لأعشق وأحب؟ موادنا كثيرة وطويلة.

قطع عليهما حديثهما دخول أميرة بأناقتها وجاذبيتها:

– الحمد لله استيقظت أخيراً..

حاول النهوض مرحّباً بها:

– لا تزعج نفسك.. أحضرت لكَ هذا الحساء الساخن.. إنه يعطيك القوّة للمقاومة..

– شكراً لكِ.. لماذا أزعجتِ نفسك؟

سخر عادل منه:

– هل أزعجت نفسها بصحن الحساء هذا؟ قضت أكثر من عشرين يوماً وهي تعتني بك في طعامك ودوائك، ماذا تسمي ذلك؟ إزعاج!؟ إنه عناية بالغة.. إنها سيّدة عظيمة..

– أنا آسف..

– هه.. بما أن السيّدة أميرة ستبقى هنا لبعض الوقت، يمكنني الذهاب إلى مكتبة الجامعة، سأستعير أحد المراجع الهندسية..

– خذ راحتك يا عادل.

همس بعد أن خرج عادل:

– أتعبتكِ معي؟

– ماذا تقول؟ هذا أقل من واجبي تجاهك. أنسيت؟

شعر عماد بجيشان العاطفة وهو يتأملها تروح وتغدو أمامه.. فأطلق زفرة حرّة، فهرعت إليه:

– أتتألم؟

– لست أتألم وأنا أراكِ أمامي جميلة أنيقة تنشرين العبق حولي، ليت مرضي يستمر طويلاً لأراكِ معي دائماً..

– أإلى هذه الدرجة تحبني؟

– آه لو تعلمين..

– أعلم أنك كل شيء في حياتي المظلمة.. عماد حبيبي، أتخفي عني شيئاً؟

– أنا!؟

– نعم. كنتَ محموماً تهذي باسمي بكراهية، أحدث شيء عكّر حبنا؟ قل لي يا حبيبي لا تخفِ عني شيئاً،

لماذا كنتَ تكرهني في مرضك؟

– ماذا أقول لكِ؟ هل أنا أكرهك حقاً!؟

– أرى نظرات الحب في عينيك الآن، ولكن نظراتك لي إبّان مرضك كانت غيرها في هذا الوقت، ما الذي جرى؟ اصدقني القول؟

– لم يحدث شيء، لماذا تتخيلين أشياء ليست موجودة في الواقع؟

– وهذيانك؟

– كان هذياناً.. ربما كنت غارقاً في عالم كوابيس مزعجة فتلفظتُ بأشياء بعيدة عن إحساسي.

– لا يا حبيبي، حكيت في هذيانك عن رسالة، وعن أفعى ناعمة الملمس، وعن مظاهر خادعة. قالت لي والدتي أن أحد الأطفال تسلّل إليك.. ماذا قال لك ذلك الخبيث؟

– ماذا تقولين!؟

- ماذا حمل لك؟ اصدقني القول.. هل أحدث شرخاً في تلك الصورة الجميلة التي تحملها عني؟

كانت تبكي بصمت، فاختلج قلب عماد من التأثر:

- ما الذي دعاكِ لهذا القول؟ فعلاً جاء الولد يطلب مني قصصاً وكتباً للتسلية، ومع الأسف لم أعثر على أي من هذه الكتب عندي.. لم يحكِ الصغير شيئاً ولم يعطني شيئاً، لماذا كل هذه الأسئلة؟ أتخفين عني سرّاً؟

- آه يا عماد، يتهمني البعض بعدم العناية بالأطفال، وبإهمالهم أحياناً.. وأصدقك القول أنني لكثرة مشاغلي قد لا أنتبه إليهم أحياناً.. ولكن كيف أهملهم؟ هم كل عالمي، أمعقول أن أهملهم وأنا أعيش من أجلهم..

أجهشت بالبكاء، فضمّها عماد إلى صدره يخفف عنها وقد شعر نحوها بحب لا يوصف..

*　　　*　　　*

الفصل الرابع

بعد خروج السيدة من عنده، بدأ يوازن الأمور، فقرر نسيان الرسالة الغامضة وهو يرى محبتها الشديدة له، وإطناب عادل في الحديث عنها، وهكذا بدأ يسترد عافيته شيئاً فشيئاً، وكان الامتحان قد انتهى حين بدأت فترة نقاهته وأقنعه عادل بالسفر إلى القرية لقضاء العطلة النصفية هناك علّه يستردّ صحته بسرعة.. وقد انزعج أهله عند سماعهم لخبر مرضه، وأنّبوا عادلاً لعدم إخبارهم بحالته الصعبة حتى يحضر بعضهم إلى العاصمة ويعتني به.. ولكن عادلاً طمأنهم أن الجيران اعتنوا به جيّداً ولم يكن هناك من حاجة لحضور أي منهم...

قضى عماد أيام العطلة وسط عناية أهله البالغة براحته، ولم ينس خلال وجوده سيدة القصر الفاتنة.

كانت ذكراها تلّح عليه لدرجة أنه فكر أكثر من مرة بقطع إجازته والعودة إلى العاصمة، لولا خوفه من انزعاج أهله.. كتب كثيراً من الخواطر التي تعبر عن عشقه وأحلامه باللقاء معها.

وقبل أن تنتهي إجازته بيوم واحد رأى حلماً مرعباً كانت بطلته سيّدة القصر نفسها...

* * *

كان يمشي في طريق وعر، وهو يعاني من وعورته، حين اعترضت أميرة طريقه:

– لماذا تهرب مني؟ حانت الساعة يا عماد.

– أية ساعة يا أميرة؟

– ساعة موتك، يجب أن تموت قبل أن تكشف أسراري.

شعر برعب لا يوصف وهو يجدها تدفعه في الطريق الوعر الذي ازداد انحداراً، كانت قوية بشكل خارق وكان هو كمن لا حول له ولا قوة..

- أتظن نفسك ذكيّاً؟ لن تـهرب منـي هذه المرة؟

- لا تدفعيني، ماذا فعلت لكِ؟ أنا أحبكِ..

- أعلم أنكَ تحبني، وستدفع ثمن محبتك غالياً كما دفع غيرك هذا الثمن..

كانت تضحك وهي تدفعه وسط صراخه:

- آه.. أنـتِ زوجتـي يـا أميـرة، وعليـكِ حـق الطاعـة.. اتركيني.. لماذا تدفعينني هكذا؟ ماذا فعلتُ لكِ؟

- موتكَ يزيد من قوتي، سآخذ فتوتك وأجعلها تجري في دمي، لأجدّد بها شبابي..

- آه يا إلهي، هناك حفرة خلفي، سأسقط فيها.. آه.. إنها حفرة أشبه بالقبر..

- هيّا اترك يدي، ولتسقط في قبرك..

- سنسقط معاً..

صرخ بقوة وهو يكمل:

- لن أتركِكِ وحدك، ستسقطين معي، هه..

كانت تقهقه بهستريا وهي تنشب أنيابها فيه:

- سأمتصّ منك رحيق الحياة، وأطير، وأخرج من هذه الحفرة الملعونة..

أحسَّ بجسمه يتيبّس، وهو يغيب عن الوعي...

* * *

صحا عماد خائفاً، وجلس قليلاً يسترد أنفاسه وصورة أنياب أميرة تعاوده فيشعر بالقشعريرة تعتري جسمه...

وفي السيارة وهو يتجه مع عادل إلى العاصمة، قصّ عليه الحلم:

- خفت كثيراً، ولم أستطع النوم بعد ذلك. كان حلماً فظيعاً..

- يبدو أنك تفكر بها كثيراً.. بصراحة يا عماد، أشعر أنكَ تخفي عني سرّاً يتعلّق بها، علاقتكما ليست عاديّة، رغم أنني حاولت كثيراً تجاهل هذا الأمر.. أنا لست

غريباً عنك، حدثني بهمومك.. ومتاعبك.. قد أستطيع مساعدتك..

- أوه يا عادل.. ربما كان هناك نوع من العلاقة بيني وبينها، ولكن لا تخف لم تتجاوز هذه العلاقة حدودها..

ارتبك قليلاً وهو يكمل، وقد شعر بنظرات عادل تتابعه:

- لست أخفي عنك سراً، تأكد..

- أرجو ذلك وإن كنت أتمنى عليك أن تحكي لي بعضاً من همومك، لن أتأخر عن مساعدتك أبداً..

شعر عماد بالخجل من حرارة عاطفة صديقه، وكاد أن يفشي له بعض الأسرار التي حكتها له السيّدة، ولكن عادلاً لم يترك له مجالاً، إذ اندفع يتكلّم عن الواجبات الدراسية التي يجب على عماد الالتزام بها، وضرورة أن يعوّض ما فاته حتى لا تضيع منه السنة، وأن عليه الحدّ من الانجراف بالعاطفة في علاقة غير متكافئة...

وصل الصديقان إلى العاصمة، ورغم محاولة عماد

التظاهر بعدم الاكتراث لرؤية أميرة وهي تستقبلهما بحفاوة بالغة، فإن قلبه كان يخفق بشدّة ولم يستطع إخفاء اضطرابه وهو يراها تحمل صينية من الطعام الفاخر بعد وصولهما بقليل، وما أن خرج عادل من البيت ليطّلع على نتائج الفصل الأول في كليّته، حتى جذبها إليه يغرقها بالقبل، وهي تحاول التملّص.. ثم انسحبت متعلّلة ببعض المشاغل، وتركته يستعيد ذكرياته المشبوبه بالعاطفة معها..

وفي تلك الليلة أصابه الأرق، فخرج يتمشّى أمام الشقة الصغيرة والساعة تقارب الواحدة والنصف صباحاً، وصله صوت الأنين من القصر الذي تكرر لعدة مرّات قبل أن يتوقف، ثم سمع صوت الباب الحديدي يفتح ويغلق، ورأى أميرة بكامل أناقتها تتجه صوب باب القصر، همس:

– أميرة..

توقفت وقد لحظته:

- عماد، ماذا تفعل هنا؟

- عدتِ للسهر من جديد؟

- أتغار عليّ؟

- ألم نتفق من قبل أن لا سهر ولا تأخر في الليل؟

تنهّدت:

- وماذا أفعل؟ أشعر بضيق قاتل يا عماد..

أمسك يديها:

- أميرة أنا أحبك، أتعذب في بعدي عنكِ..

غمر راحتيها بالقبل، غمغمت:

- وأنا أحبكَ حباً ملك عليّ قلبي وعقلي..

- هل هذا الشعور هو الذي يدفعك للسهر والإساءة إلى شخصيتك وصحتك؟

- وما نفع حياتي؟ سأظل محرومة من أبسط الحقوق، وأنا أرى نفسي تذبل شيئاً فشيئاً بلا شخص عطوف

يحيطني برعايته وحنانه..

– أنا أحبك يا أميرة، حباً يفوق الوصف.

– وإلامَ ستبقى علاقتنا؟ ستنتهي من دراستك وتعود إلى أهلك، وأبقى وحدي أجترّ الذكريات.

أجهشت بالبكاء، فضمّها إليه بحنان:

– حبيبتي لا تقطّعي قلبي ببكائك.. اسمعي هل تقبلين الزواج بي؟

– لا أريد شفقة.. أنا إنسانة بائسة، لا داعي أن تجاملني بشفقتك..

– لست أشفق عليكِ في هذا، أنا أحبكِ بكل جوارحي..

– أنا إنسانة تعيسة هرب منها الحظ..

– لم تجيبي على سؤالي، أتقبلين الزواج بي؟

– هل أنتَ جاد؟ أرجوك لا تعذبني..

– أنا أعرض عليكِ الزواج بكل إرادتي وتصميمي..

– وكيف سيكون ذلك؟ ماذا عن أهلك ودراستك؟

- أنتِ حياتي، بدونكِ لن أستطيع العيش..

- يا حبيبي..

ظلَّ الحبيبان يتناجيان حتى ساعة متأخرة من الليل، ثم انسلّت أميرة من حضن عماد نحو القصر وهي تهمهم بعبارات السعادة...

* * *

الفصل الخامس

ووسط دهشة عادل واستغرابه، أعلن عماد عن قراره الزواج من أميرة، وطلب من صديقه أن يحفظ سرّهما حتى يحين الوقت المناسب لإعلان الزواج، وهو وقت لم يحك عماد عنه شيئاً لعادل الذي اضطرَّ مرغماً على السكوت، ولم يرسل عماد إلى أهله سوى رسائل عادية يحكي فيها عن دراسته الناجحة وطموحاته.

في الأيام الأولى لزواجه كان عماد غارقاً في سعادته مع أميرة التي كانت تتقن من فنون الحب والإثارة ما جعله ينسى نفسه، وكان يطل على الشقة الصغيرة قرب باب السور في أوقات متباعدة. وفي أحد الأيام فوجئ برسالة مكتوبة بخط مشوّش، معنونة باسمه على طاولة دراسته وقد كانت من عادل يحكي فيها أنه انتقل إلى مكان آخر، ويعتذر فيها لعماد أنه لا يستطيع متابعة

السكن في الشقة الصغيرة، وأنه سيظل محافظاً على سرّ زواج صديقه، وسيرسل له عنوان محل إقامته الجديد فيما بعد.. وتمنّى له السعادة مع أميرة..

شعر عماد بالحزن وهو يتأمل غرفة صديقه الخالية تماماً، وعاد إلى القصر لتستقبله أميرة بمحبّة وعاطفة مشبوبة آنسته حزنه على رحيل عادل..

قضى عماد أوقاتاً سعيدة في القصر، كان الخدم يروحون ويجيئون أمامه ولم يرَ العجوز أم السيّدة وقد برّرت أميرة عدم ظهور أمها بأنها غاضبة على زواجها من عماد، كما لم يرَ أيّاً من الأطفال، واختفى صوت الأنين.. كان كل شيء يوحي بالسعادة له حتى أنه نسي موضوع دراسته، فما الحاجة لها الآن ما دام يسبح في بحر من النعيم؟ يمكنه تأجيل الدراسة للعام القادم.. هكذا أقنعته أميرة:

– لقد فات الوقت على اللحاق برفاقك هذه السنة..

- نعم، هذا صحيح...

ولكن مظاهر الإعياء بدت عليه بعد مدّة رغم عناية سيدة القصر، كان يأكل جيداً ويمرح جيداً ويتعاطى الحب بلذّة فائقة، ولكنه كان أحياناً ينام لوقت طويل إذ يحط عليه خدر مفاجئ فينام.. وكان يشعر بالحكّة في بعض مناطق جسمه، وفي أحد الأيام عثر على رسالة معنونة باسمه بين بريد السيّدة، فمدَّ يده يتلقفها بلهفة في الوقت الذي دخلت فيه أميرة:

- إنها رسالة معنونة باسمي..

- لا بد أنها من أهلك.. وصلت هذا الصباح..

كانت من أهل عادل يستفسرون عنه، وقد مضت مدة لم يستلموا منه شيئاً يطمئنهم عليه، ويطلبون من عماد أن يكتب إليهم عن حالته، وهل هو مريض؟ ولماذا لا يرسل رسائل منتظمة كعادته؟

سألت أميرة:

– وكيف ستعرف مكان إقامته؟

– ليس سوى الجامعة، يجب أن أسأل في كلية الهندسة المدنية عنه، قد يكون مريضاً فعلاً.

– إنه شاب طائش، ما كان يجب أن يغادرنا هكذا..

– معكِ حق، ولكن يجب أن أقوم بهذه المهمة..

– ومتى تنوي الذهاب إلى الجامعة؟

– أعتقد أنه يجب أن أبكّر في الذهاب غداً..

– يمكنني إرسال من يقوم بهذه المهمة عوضاً عنك.. ربما كان ظهورك في كلية عادل مثيراً للفضول، قد يزعجك بعض أصدقائه بتعليقاتهم..

فكّر عماد قليلاً:

– هذا ممكن فعلاً..

– إذن لا تقلق، سيكون كل شيء واضحاً أمامك حول عادل، في الغد.. أعدك..

تنهّد بارتياح وأمسك يدها يقبّل راحتها..

قدّمت له كأساً من عصير الفاكهة، تناوله منها بكسل..

- أنت تتعب كثيراً، تحتاج لتغذية متكاملة..

شعر بخدر لذيذ وهي تضمه إليها، ثم استسلم لنومٍ عميق..

* * *

الفصل السادس

صحا عماد، وهو يشعر بصداع يكاد يفلق رأسه، كان ينام عاري الصدر فوق السرير الواسع الذي طالما شهد صنوفاً من الحبّ مع أميرته.. شعر بحكّة شديدة في رقبته وقد كان جرحاً صغيراً تيّبس فوق الدم.. ارتدى قميصاً معلّقاً قربه وخرج بإعياء بالغ يفتش عن مسكّن في خزانة الأدوية، كانت الساعة تقارب الواحدة صباحاً.. لم تكن أميرة موجودة في الصالة كما توقع، أين هي إذن؟ ربما كانت مع الأولاد؟ هذه الفكرة أراحته قليلاً، إنهم أطفالها ولهم الحق عليها.. ولكن لماذا لا يراهم؟ أيقيمون في مكان آخر؟

للقصر طوابق متعددة، من السهل أن يتوزعوا فيه.. وصله صوت أنين، آه منذ زمن لم يسمع هذا الأنين، منذ أن سكن القصر فعلياً.. شعر عماد بالتعب فعاد إلى

غرفة النوم وقد فشل في العثور على مسكّن.. ((ليت أميرة تعود الآن)). وصله الأنين من جديد فأحسَّ بانقباض فجائي، ثم سمع صوتاً عرفه، إنه صوت العجوز أم السيّدة، كانت تتحادث مع شخص آخر، أتكون أميرة قد عادت من عند أطفالها؟ الحمد لله..

ولكن الصوت الآخر كان لرجل، نهض من الفراش، واقترب من الباب يتنصّت:

- لماذا خرجتَ من حجرك أيها الأحمق؟

- تعبت.. تعبت..

- اهبط إلى غرفتك بسرعة.. وإلا جلدتك بالسوط من جديد..

- كم أنت قاسية. إنها تستعبدك وأنت تلبين رغباتها..

- إنها سيدتي وحاكمة أمري، لو طلبت مني الموت في سبيلها لفعلت.. هيّا عد الآن إلى غرفتك..

- اتركيني هنا قليلاً. تعبت من الوحدة والفراغ والحزن..

- يبدو أنك عدت لجنونك.. هه.. سأستخدم السوط من جديد..

وصله صوت جلد بالسياط وتأوهات مؤلمة، كان الرجل يصرخ:

- لماذا لا تدعوني أموت؟

- حين تقرر سيدتي موتك ستموت.. هيا عد بسرعة..

عاد السوط يفرقع من جديد ثم ابتعد الصوت حتى لم يعد يسمع.. كان عماد مذهولاً وهو يقف خلف الباب يسأل نفسه: من هذا الرجل؟ ما علاقته بالعجوز؟

من الواضح أن العجوز ليست أم السيدة.. قد تكون مربيتها وفي مقام والدتها.. ولكن من هذا الرجل؟ ولماذا يعامل بكل قسوة؟ حين تعود أميرة سأسألها..

خرج من الغرفة إلى الصالة يتمشّى، ثم سمع صوت الباب الحديدي يفتح ويغلق..

" أمعقول أن تكون أميرة قد عادت للسهر من جديد؟ لن

أترك الأمر يمرّ هكذا.. انتابته مشاعر متناقضة، وهو يتمشّى بعصبية ينتظر لحظة دخولها من باب القصر.. ولما طال الوقت عليه، اقترب من الستارة يزيحها قليلاً، طالعه الممر المضاء ثم لحظ النور المتوهّج في الشقة الصغيرة، فاجأه منظر أطاش صوابه، أميرة تعانق شخصاً آخر، إنه ليس عادلاً بالتأكيد، من يكون إذن؟ يا إلهي.. كاد يسقط من المفاجأة ولكن صوتاً جمّده:

– ماذا تفعل هنا؟

التفت ليرى امرأة عجوزاً تحدّق فيه بغضب، خمّن أنها المرأة التي سمع صوتها قبل قليل.

– آه.. صحوت لم أجد أميرة، كان رأسي يؤلمني فخرجت أفتش عن مسكّن. آه أنت والدتها؟ سعيد بمعرفتك، هذه أول مرة أراكِ فيها..

– ادخل غرفتك وعد إلى سريرك قبل أن تحضر السيدة.. ستغضب كثيراً..

– لماذا؟ ماذا فعلت؟ أليس هذا المنزل أو القصر ملكاً لزوجتي، ألا يمكنني أن أتجوّل بحريّة فيه؟

– اذهب للنوم قلت لك..

– محظور عليّ الخروج من الغرفة، هل أنا سجين!؟ أتريدين أن تقولي هذا؟

– اذهب للنوم..

فتح الباب فجأة ودخلت أميرة:

– عماد، ماذا تفعل هنا؟ وأنت يا أمي.. آه..

– كان يتمشى في الصالة، وينظر من النافذة..

– كنت أتأمل القمر، ألاحظت جماله عند دخولك؟

– هيا يا أمي عودي للنوم ولا تقلقي، سأدخل مع عماد لننام، تعال يا حبيبي..

كان يفكر بحرقة ((أمعقول!؟ أيوجد امرأة بهذه النذالة؟ كانت مع عشيقها الجديد ودخلت كأن شيئاً لم يحدث مثل أي امرأة بريئة طاهرة. أوه.. لعنة الله

عليك..)).

سألته:

- تبدو شارداً؟

- لا.. أنا متعب بحاجة للنوم فعلاً..

- ما رأيك لو شربت كأساً من اللبن، إنه يساعدك على النوم بهدوء..

- لا بأس..

- سأحضّره لك بنفسي.. هه.. لن أتأخر كثيراً..

فكّر للحظة بعد أن غادرته، ماذا سيفعل؟ لقد رأى خلال لحظات أشياء كثيرة لم يكن يتوقعها في حياته، كيف سيتصرّف؟ هل يجابهها بما رأى؟ أم ينتظر لبعض الوقت ويتظاهر أن كل شيء طبيعي، ويحاول أن يظهر لها المحبة نفسها التي تعودتها منه..

دخلت وبيدها كأس اللبن وكانت تبتسم:

- إنه لبن طازج يا حبيبي..

- أتعلمين يا أميرة: أنتِ أعزّ مخلوقة في الوجود، هل عدت للسهر من جديد؟

- أنا متعبة، اشرب اللبن وسنتبادل الحديث في الصباح..

بدأت تخلع ثيابها لترتدي ثياب النوم الخفيفة، غافلها للحظة وصب الكأس في إناء من الخزف قربه، ثم تظاهر بمسح اللبن عن شفتيه..

- إنه لذيذ..

اقتربت منه وقد بدا عريّها الفاضح قبيحاً في عينيه:

- ماذا حدث أخبرني؟

- صحوت متأخراً، لم أجدك إلى جانبي، كان ضوء القمر يتسلل عبر النافذة.. أمتعتني مراقبته والسماء صافية..

- ستنام الآن بعمق، لن تشعر بألم بعد الآن..

فكّر خائفاً: ((أتكون قد وضعت السم في كأس اللبن؟ معقول؟)).

تظاهر بالنعاس ثم أغمض عينيه وهو يتثاءب، وبدا لها وكأنه يغط في نوم عميق. شعر بها تنهض، تفتح الباب، سمع صوت العجوز..

- تأكدي يا سيدتي أنني فوجئت به يتجول في الصالة الضخمة..

- ألم يقم بأي عمل؟

- كان ينظر من النافذة فقط..

- أية نافذة؟

- القريبة من الباب..

- أخشى أن يكون رآني في الشقة الصغيرة..

- لا أعتقد يا سيدتي.. على كل حال لماذا تحتفظين به حتى الآن؟

- معكِ حق.. لم يعد ذا فائدة..

- ماذا تنوين أن تفعلي معه؟

- كما فعلت مع الآخرين.. أحضري لي مشرطاً..

- إنه جاهز معي باستمرار.. تفضلي يا سيدتي..

شعر برأس المشرط يشق كتفه قليلاً:

- كأنه اختلج قليلاً..

- إنه مخدّر يا سيدتي.. قد يحدث ذلك أحياناً، ليست المرّة الأولى..

- معكِ حق..

شعر بها تمتص جرحه بقوة وشغف.. تنهدت:

- يكفي لقد شبعت.. هه.. سينام لبعض الوقت قبل أن أتفرّغ له تماماً..

- إلى أين ستذهبين؟

- سأهبط القبو لبعض الوقت..

- نسيت أن أقول لكِ، لقد خرج الأحمق من جحره اليوم وتأوه كثيراً وشتم كثيراً. أدخلته جحره بالسوط.. ألم يحن الأوان يا سيدتي؟

- ماذا تقولين أيتها الحمقاء؟ إنه كبير السن لن يعيش

طويلاً..

– آه يا سيدتي ما أجملك وأشد نعومة جلدك. عندما أتحسسه أشعر بمتعة غير عادية.. هذه القدم الصغيرة الجميلة لا تحتاج سوى للتقبيل..

سمع صوت قبلات حارّة، خمّن أن العجوز تقبّل قدم السيّدة:

– أوه لا تدغدغيني.. لسانك يثيرني وهو يسرح على قدمي يا حمقاء.. اتركيني الآن سأهبط القبو..

– هل جيراننا بخير يا سيدتي؟

سمعها تضحك ضحكة فاجرة:

– إنهما شابان يتسابقان لنيل رضائي..

– معاً؟

– أحدهما يسهر والآخر ينام، وهذه المرة بمنوّم.. يتناوبان على السهر بانتظاري كل يوم.

– والشاب الآخر إنه يزعج عباس والرجال كثيراً..

- لم يحن أجله بعد، دمه حار، إنه فلاح قوي يتدفق فتوة..

- ولكنه شرس لا يستسلم بسهولة..

- إنها ميزة فريدة..

* * *

الفصل السابع

خرجت أميرة والعجوز من الغرفة وأغلق الباب، وبعد لحظات تحرّك عماد وقد شعر بوخزة في كتفه، كان الدم يسيل ببطء، وضغط عليه بإصبعه قليلاً وتناول إبريق الماء إلى جواره، ومسح الجرح وضمّده بقطعة من القماش قطعها بواسطة المشرط الذي يبدو أن العجوز قد نسيته..

لم يسمع أية حركة، كانت الأبواب مقفلة والنوافذ محصنة بالحديد.. ووجد أمامه سلّماً لولبياً يتجه نحو الأسفل، خمّن أنه يؤدي للقبو، أخذ يهبطه بخوف وحذر، وجد أمامه قبواً ضخماً بغرف عديدة مغلقة، ورأى درجاً يؤدي إلى أسفل يبدو أن هناك قبواً ثانياً...

هبطه من جديد، سمع ضحكات مجنونة مستهترة خمّن أنها لأميرة، نظر إلى داخلها رأى أميرة تجلس

وتتمـازح مـع رجـل عجـوز بلحيـة بيضـاء، وقـد انتشـرت داخـل الغرفـة الزجاجيـة مـواد وعقـاقير كيماويـة وأعشـاب في أنابيب وزجاجات مصفوفة بانتظام، كان يبدو معملاً صغيراً للتجارب الكيماوية..

- لك أن تفخر يا إبراهيم بنجاحك الساحق.

- نعم يا أميرة، من يراني يعتقدني جدّك..

- بالفعل أبدو كحفيدتك..

- آه يا لـي من بـائس، ضحيت بكل شيء من أجل أن أبقـى قريـك أتنسّم رضـاك حتـى ذهـب شـبابي واضـمحلّت قواي..

- لمـاذا لا تجـرّب الإكسـير، تنـاول منـه لتحـافظ علـى قوتك..

- أعوذ بالله، عن أي إكسير تتكلمين؟ مقويّات مخلوطة بدم بشري فتي.

- وماذا في ذلك؟ ألا ترى ما أتمتع به من قوة وجمال؟

- تمـدّدي هنـا.. دعينـي أقـوم بـواجبي وأدهـن جسـمك بالمرهم..

- كما تشاء..

رآها تتمـدد بعـد أن خلعـت ثيابهـا وأصـبحت عاريـة تماماً، كان العجوز يتأمل جسمها بشغف وإعجاب:

- وماذا ستفعلين حين أموت وقد بلغت من الكبر عتياً؟

- لا تخـف مـن هـذه الناحيـة، أسـتطيع إحضـار نطاسـي آخر يقوم على خدمتي.

- وأي مجنون يرضى بالموت في هذا السجن البغيض؟

- أتسمي هذا سجناً بغيضاً، وكنت تعتبره جنّـة وأنـت فـي مقتبل الشباب؟

- نعم.. حبـي لـك وانجرافـي بعاطفـة جياشـة نحـوك كانـا يملكان عليّ عقلي..

- والآن..

- نفذت الرغبة بالحياة وعدت لا أرى إلا الكوابيس..

- بدأت تخرّف، ألا تخاف من عقابي؟

- ليس في العمر بقيّة يا أميرة، تهددينني بالموت؟ لا بأس..

- سأسحق من يقف في طريقي..

- وهل تستطيعين متابعة هذه اللعبة إلى آخرها؟

- بالطبع.. لديّ عشيق جديد إنه يدرس الطب في سنته الأخيرة، سأحضره إليك خلال أيام ليتدرب، لن يستطيع الرفض.. إنه يذوب حبّاً بي.. آه.. أتذكر يا إبراهيم؟

- ماذا تريدين أن تقولي؟

- كنت شاباً طري العود حين همتَ بي حبّاً، كان ذلك قبل (60) عاماً..

- نعم كنتِ خارقة الجمال، تنشرين العبق من حولك، قدّموكِ لي كابنة الباشا صاحب هذا القصر..

- نعم، ولاحقتني كثيراً حتى قبلت بصحبتك.. كم كان عمري يومها؟ أتذكر؟

– قلت لي أنك في العشرين، وكنت تبدين أصغر من ذلك..

– أتعلم كم كان عمري الحقيقي؟

– لم أسأل نفسي هذا السؤال..

– كنت في الخمسين من عمري..

– يا إلهي.. أمعقول؟

كان عماد مذهولاً للحديث الذي اتخذ منحىً آية في الغرابة..

– آه يا إبراهيم.. كان الباشا هو زوجي، وحين التقيتك قدّموني لك كابنة الباشا وهكذا أوهمت الجميع بعد موت زوجي، إذ كنت أبدو صغيرة السن، ولم يزل عودي نضراً والفتوّة تتفجّر في جسمي..

– ما الذي جعلك تحكين لي هذه الحكاية؟

– حتى تقدّر ما تفعله، وتعلم أنك رجل علم خارق الذكاء..

– أنـا؟ ذلـك الرجـل التافـه الـذي دفـن نفسـه حيّـاً فـي أحضـانك، وهـرب مـن العـالم الخـارجي والهـواء النقـيّ، أتعلمـين؟ نسـيت شـكل القمـر والشـمس.. نسـيت أريـج الزهـر وجمـال الطبيعـة، كنـت أحلـم بـذلك منـذ سـنوات بعيدة.. أما الآن فأغفو على الكوابيس وأصحو عليها..

– آه.. كم كنت فتيّاً قويّاً يا إبراهيم، أما الآن فأنت شيخ خرف لولا ما تقدّمه لي من عون لكنت أرحتك من هذه الحياة منذ زمن بعيد..

سمع الشيخ يتنهّد بحرقة:

– أحياناً أذكر ذلك العجوز (كامل) الذي علّمني أصول هذه الصنعة فأحزن لحالتي..

– كان كامل أول عشيق لي، وكنت غضّة طريّة العود حين تزوجت الباشا الذي انتقاني من بين مجموعة من الفتيات.. وكان في ذلك الحين في سن يزيد عن الستين، ورغم المقويّات والغذاء الخاص الذي كان

يتناوله، لم ينجح في مجاراة فتوّتي وعبثي، فدفعني بين يدي (كامل) أحد أكثر أطباء عصره نبوغاً..

– وهل كان كامل يعرف سرّ الشباب الدائم؟

– كان إضافة لعلمه ودراسته يحتفظ بكتب قديمة تتحدث عن الشباب الدائم، وكان يسميها كتباً سحرية، وكان يقول حين يراني ((حرام على هذا الجسم الجميل أن يشيخ))، ثم عرض عليّ اقتراحاً اقشعرّ له بدني في ذلك الحين..

– ماذا كان ذلك الاقتراح؟

– سألني أن أنتقي شاباً قويّاً من الخدم وأحضره لعيادته..

– لماذا؟

– لم أفهم السبب في البداية، ولكن حين أحضرت الشاب في اليوم التالي، سحب منه كأسين من الدم وأضاف لهما بعض السوائل والمقويّات، وطلب مني أن

أشربهما تباعاً، اقشعر بدني في البداية وقلتُ له ((إنه عمل مقزّز))، فأجابني وهو يبتسم ((ستعتادين عليه، إنه جزء من علاج أنوي تطبيقه عليكِ من أجل الشباب الدائم)). لم أستسغ ذلك الشراب في حينه، ولكني اعتدت عليه، خاصة عندما أمتص الدم من الضحية المخدرة بمعرفة الدكتور كامل نفسه..

- وبدأت بانتقاء ضحاياك من الشباب الصغار المشرّدين الجائعين، تحضرينهم إلى قصرك وتعتنين بهم حتى يسمنوا ثم تجهزين عليهم..

- إنهم سرّ شبابي الدائم يا إبراهيم..

سمع الشيخ يتنهد بألم:

- آه.. عندما أراجع حياتي، وأحصي الجرائم التي ارتكبتها في سبيل إرضائك، أحسّ بالاحتقار لنفسي، فعلت خلال كل هذه السنوات بالاشتراك معك جرائم يترفّع الحيوان عن فعلها..

سمعها تضحك بفجور:

- إن كنتَ نادماً سأريحك من عذابك..

أخذ الشيخ يمسح ظهرها بالمرهم بعد أن ركّبه من جديد وقد انتهت كميّة المرهم الأولى، وكان عماد مسمّراً في زاويته تحت الدرج يستمع إلى الحديث الذي هزّه من الأعماق. ثم سمع جلبة وصخباً، فانزوى في مكانه بخوف وهو يدعو الله في سرّه أن لا يكتشفوه..

شعر بوقع خطوات ثقيلة على الدرج فوقه:

- اهبط أيها الوغد.. هيّا..

اقشعرّ بدن عماد وهو يسمع صوت عادل:

- أنذال، مجرمون..

كانت العجوز ترافق الرجال وهم يدفعون عادلاً المقيّد..

- هاهو يا سيدتي، كاد ينجح في الهرب من الزنزانة..

لم يبدُ على أميرة أنها اكترثت بوجود الرجال، وهي ممددة عارية تماماً أمام إبراهيم..

- قيّده على هذا الكرسي يا عبّاس..

- حاضر يا سيدتي..

شعر عماد بالذنب حيث كان يعتقد أن عادلاً ترك الشقة إلى مكان آخر.. أي سرّ اطلع عليه حتى سجن وعذّب..

- عباس. هل الأطفال بخير؟

- نعم يا سيدتي.. إنهم يأكلون جيّداً..

- هل يقومون برياضتهم بانتظام؟

- لا تقلقي يا سيدتي سيغدون أصحّاء أقوياء البنية..

- اذهبوا جميعاً من هنا وتأكدوا أن كل شيء على ما يرام، لا تغفل عينك لحظة يا عباس وأنتِ يا سعدى..

همهمت العجوز:

- لا تقلقي يا سيدتي..

- اطمئني على عماد، أما زال نائماً؟

- نعم..

* * *

الفصل الثامن

ذهبت العجوز سعدى وبقيّة الرجال بصحبة عباس يتفقدون القبو..

شعر عماد بالرعب وقد خاف أن ينتبهوا له فانزوى متكوماً كالحجر.. وبعد لحظات حسبها دهراً وهو لم يسمع صوت أميرة خلالها، سمع خطوات الخدم وهم قادمون نحو مكانه، ولكنه تنفس بارتياح حين سمع وقع أقدامهم تصعد الدرجات فوقه..

استغرب عماد عدم سماع صوت في غرفة المختبر الكيميائي، فتحرّك قليلاً في مكانه ورأى رأس عادل مدلّى على الكرسي، وأميرة تتقلّب على المنضدة وإبراهيم يدهن جسمها بهدوء..

– آه غفوت قليلاً..

– ألا تتعبين؟ بالطبع ستشعرين بالنعاس.. هذه الجهود

المضنية والنهم لا تتناسب مع قلّة نومك..

سمعها تضحك بفجور:

- أيقظ هذا الشاب..

- ماذا تريدين أن تفعلي به..

- ستعرف كل شيء.. هيا أيقظه، تحرّك..

تحرك عادل بضعف ثم فتح عينيه، كان وجهه مقابلاً لعماد.

عزّ على عماد أن يوضع صديقه في هذا الموقف.

- آه.. أنت أيتها المرأة الشريرة، ماذا تريدين مني؟ ألا يعلم عماد ماذا تفعلين؟

- إنه يعتقد أنك تركت البيت وانتقلت لسكن آخر..

- إنه طفل أوقعته تحت تأثيرك ولا يعلم من أنت وماذا تفعلين؟ آه.. أيتها الشيطانة الكريهة، كيف صدف ولم يكتشفك الناس، ويكتشفوا أفعالك البغيضة طوال هذه السنوات.

– من تريد أن يكتشفني؟ كل من له سلطة في هذه المدينة يتمنّى أنه يحظى بالجلوس معي والسمر على طاولتي؟ عريتهم جميعاً، وأعرف مباذلهم ونقاط ضعفهم. من يجرؤ منهم على العبث معي، سينتهي لا محالة..

تقدمت إليه عارية متهيجة:

– تعال إلي.. سأفك قيودك...

– ابتعدي عني..

– دوماً تجاهر بعنادك ثم تستسلم لي..

– آه ماذا تفعل أيها الشيخ؟ تبدو طيّباً، لِمَ تساعدها في إذلالي هكذا؟ لا تغرز الحقنة في يدي ستحولني إلى شيطان، هذه الحقنة اللعينة إنها جزء من إذلال رجولتي..

– أنا متشوقة إليك.. تعال..

انتفض عادل وقد فكت قيوده وسحب مشرطاً من على المنضدة وطعن نفسه في الصدر.

- لا أريد أن أمارس قبحي معك أيتها الشيطانة..

تحفزت أميرة بقوة مبتعدة وقد خافت أن يهاجمها عادل والمشرط في يده.. ولكن إبراهيم وقف بينه وبينها:

- ليت لي القوة الكافية لقتلك، وضعت في هذه الطعنة كل قوتي لأموت وأنتهي من هذه الحياة البائسة..

أخذ عماد يبكي بصمت وهو يسمع صديق عمره يتأوه والدم ينزف منه..

- قيّده يا ابراهيم، إنه يموت..

- ماذا تنوين أن تفعلي؟

- سأرتوي من هذا الدم الحار الذي يتدفق..

نجح ابراهيم في تقييد يدي عادل الذي بدأ يغيب عن الوعي، وانقضت أميرة عليه تشرب من دمه:

- عجلت بنهايتك يا عادل وكنت الأسير عندي.

همس إبراهيم بضعف:

- أنا أشفق على هذا الشاب، لا يبدو من هؤلاء الذين

تحضرينهم إليّ..

- قد يختلف عنهم قليلاً، إنه طالب جامعة أجّرته وزميله الشقة الصغيرة قرب باب السور الخارجي..

- ألا تخافين؟ قد يأتي أهله ويسألون عنه؟

- لا تقلق من هذه الناحية.. قدمت شكوى لقسم الشرطة القريب أتهمه وزميله بمغادرة الشقة دون دفع الأجرة.. لي في ذمتهما أجرة أربعة أشهر.. وذكرت في الشكوى أن الشقة كانت مكاناً يمارسان فيه تعاطي المخدرات مع نسوة رخيصات من أندية ليلية..

- وكيف اقتنع رجال الشرطة بذلك؟

- ضابط القسم يسهر معي أحياناً في أحد الفنادق الفخمة التي أسهر فيها.. كما أن مختار الحي شهد ومعه آخرون على صحة كلامي، بعد أن أنقدتهم مبلغاً محترماً من المال..

- أيتها الشيطانة..

– دم عادل يتدفق من جديد.. آه سأرشفه، إنه لذيذ حارّ..

– لم يمت الشاب بعد، قلبه ينبض بضعف..

– لن يطول الوقت عليه..

كان عماد يعاني من ألم شديد ويشعر بالدوار، وقد نفذ البرد والرطوبة من منامته الحريرية الفاخرة إلى عظامه، لم يدرِ ما يفعل وقد ازداد رعبه وكاد يصاب بهستريا حين تبيّن الحالة التي وجد نفسه فيها.. خطر له أكثر من مرة أن يظهر نفسه، ولكن خوفه من الانتقام شلَّ حركته، وسمع جلبة وصياحاً من جديد، وحضرت العجوز سعدى وخلفها عباس وبعض رجاله:

– مالكِ ترتجفين يا سعدى؟

– لقد اختفى عماد يا سيدتي، قلبنا القصر رأساً على عقب فلم نعثر عليه..

– كيف؟ وضعت في كأس اللبن مخدراً يكفي لتنويم

حصان عدة ساعات.

- لم يشرب الكأس، دلقه في أحد أواني الخزف..

- السافل، سأعرف كيف أؤدبه، أمتأكد من أن أبواب القصر مغلقة جيداً يا عباس؟

- حتى الذبابة لا تستطيع أن تخرج منه.

- إذن لا تقلق، هو مختبئ في مكان ما وسنعثر عليه، لا داعي للخوف، سأرتدي ثيابي الآن. هل فتشتم القبو جيداً؟

- مستحيل أن يكون في القبو وقد فتشناه قبل دقائق..

- إذن فتشوا الطوابق العليا من جديد، لا تنسوا المداخن وصناديق الألبسة والخزائن الخشبية..

- أمرك سيدتي..

- وأنتِ يا سعدى مالكِ ترتجفين؟

- خائفة عليك..

- لا تخافي يا عزيزتي، إنها ليست أول مرة..

سيدتي، ذلك الأحمق يطلق أنّاته الليلة أكثر من أي وقت مضى..

- لِمَ لم تجلديه بالسوط؟

- سأفعل حالاً يا سيدتي..

- هيا بسرعة، أنا مطمئنة إلى أن الشابين الجديدين اللذين يسكنان الشقة الصغيرة يفهمان الوضع جيداً..

همس إبراهيم:

- لقد مات الشاب..

- حسناً فعل، خذ الجثة يا عباس وتخلّص منها.. هيا تحركوا جميعاً..

حمل عباس جثة عادل بسهولة ككيس من الخيش ووضعها على ظهره، ثم صعد وبقية الرجال وراء سعدى..

- ألم تنته بعد يا إبراهيم من علاجك؟

دقائق وأنتهي.. إنه علاج يكفي أسبوعاً بحاله..

- آه.. تأكد أنني أحمل لك الكثير من المودة ولن أزعجك أبداً..

- ما الذي حدث لكِ؟ أصبحت لهجتكِ ودودة الآن.

ضحكت بهستريا:

- لن أطيل عليك الغياب..

- لم تقولي لي بعد من هو الأحمق الذي تحدثت عنه خادمتك العجوز؟

- إنه ابني.. إنه في الخامسة والسبعين، مصاب بمرض نفسي يسمونه (المازوخية) أي حبّ تعذيب النفس، ولا يهدأ إلا بعد أن نجلده بالسياط..

- ابنك؟ لم تحدثيني عنه أبداً..

- حملته في نزوة من نزواتي، الدكتور كامل هو والده، أردت إجهاض نفسي فمنعني وكان الباشا لا يزال حيّاً، ورغم معرفته أن ما أحمله ليس من صلبه فقد فرح كثيراً، وأغدق عليّ الهدايا، حتى ولدت صبياً جميلاً، نشأ

على الدلال.. وحين مات الباشا لم يكن عمره يزيد عن الثالثة عشرة.. وفي أحد الأيام دخل إلى غرفتي فجأة وكان يضاجعني أحد رجالي، كان رجلاً قوياً رائعاً.. لم يستطع الفتى تحمّل ذلك المنظر فأحضر بندقية صيد وقتل الرجل..

– وماذا فعلتِ عندها؟

– تدبرت أمر دفن الرجل دون ضجة، وخابرت كاملاً، فنصحني بالتروّي مع الفتى، ولكنه ازداد شغباً. كان يكنّ لي كراهية، حاولت طيلة تلك السنين أن أجعله ينساها دون نتيجة.. وبدأ كامل يعطيه الحقن والمسكنات حتى تحوّل إلى كائن يحب العزلة والبعد عن الناس، وكنت حينها قد منعته من الخروج من القصر وشيئاً فشيئاً توضح مرضه النفسي.. تحوّل إلى (مازوخي) يطلق الأنّات في الليل، وليس سوى الجلد بالسوط يعيده إلى هدوئه..

- أنا مستغرب كيف فتحتِ قلبكِ لي هذه الليلة..

- لأنك يا إبراهيم أكثر الناس الذين قابلتهم إخلاصاً لـي، عشقتني طوال هذه السنين، وساعدتني لأحتفظ بشبابي الدائم بعقاقيرك وأدويتك الساحرة..

- وماذا عن أولئك الذين يسكنون الغرف فوقنا؟

- تقصد غرف القبو العلوي؟

- نعم.. أليسوا مخلصين لكِ أيضاً؟

- ربيتهم وكانوا أطفالاً مشرّدين، وأطعمتهم ودرّبتهم ليكونوا أقوياء البنية يتسابقون لنيل رضاي، ومن شذّ عن هذه القاعدة مات...

- تقومين بغسل أدمغتهم بالتدريج لتصبحي سيدتهم ومالكة أمرهم تماماً..

- الكبار في السن يساعدونني في ترويض صغار السن..

- فعلاً أنتِ شيطانة خارقة..

ضحكت بدلال:

- ولكنك تعشقني..

- آه يا أميرة.. أنا أمامك بلا حول ولا قوة..

- سأصعد الآن لأرى ما فعله الخدم، وهل عثروا على عماد؟

- الشاب التعس الآخر؟

- إنه زوجي الشرعي.

ضحكت بفجور وهي تكمل:

- زوجي اللذيذ، أنا لا أمزح يا ابراهيم.. تصوّر أرسل له ابني أحد الأطفال يحذّره مني، ولكن سعدى اكتشفت الأمر بعدما رأت الطفل يخرج من الشقة الصغيرة.. فتركته أياماً يتعذب دون أن أجلده فنسي زوجي الأمر.

همهم إبراهيم بذهول:

- زوجك... يا إلهي..

رأى عماد الشيخ ينحني على يد أميرة، ويلثمها

بعشق عجيب وهي تنسحب بدلال..

– لِمَ تستخدم لسانك اليوم أيها العجوز.. إنه يثيرني أحياناً..

ضحكت بفجور وهي تنسحب وتصعد الدرجات فوق عماد الذي ما فتئ يراقب إبراهيم الناهض من كبوته والمتوجه صوب سرير داخل المختبر بعدما أغلق الباب... سمعه بعد لحظات يغني الزمن الضائع دون جدوى. فأضاف بصوته حزناً جديداً على قلب عماد..

* * *

الفصل التاسع

كان جسمه متيّبساً من طول تقوقعه على نفسه، حركه بصعوبة، سمع خربشة إلى جانبه فوقف شعر رأسه، ولكن صوت المواء وصله، كانت هرّة ضخمة، اقتربت منه وبدأت تتمسّح فيه، ثم اتجهت تهبط درجات أخرى لم يلحظها من قبل، لحقها بسرعة، فرأى بعد هبوطه الدرجات القليلة سرداباً يمتد أمامه، سار فيه وقد شعر بالخوف من أن يرى مناظر أخرى مخيفة، أو يقع في أيدي رجال أميرة.. توقفت الهرّة للحظات وهي تموء، ثم تابعت سيرها، وصله صوت خرير مياه ساقطة، وأخذ السرداب يضيق شيئاً فشيئاً وازداد الظلام كثافة.. ولكنه لمح شعاعاً من ضوء أمامه في البعيد.. أخذ يتلمس طريقه نحوه بحذر، شعر بحركة بين رجليه وقد اختفت الهرّة، كانت هناك مجموعة من الحيوانات الصغيرة تجري

تحته.. إنها جرذان المجاري، عضّه أكثر من جرذ في رجله ولم يبالِ، تابع تقدمه نحو خيط الضوء الذي ازداد، ورأى أخيراً فتحة ضيّقة تطل على منطقة وعرة أشبه بسفح جبل، وبصعوبة بالغة، تمكّن من حشر نفسه فيها، وظل يحاول الخروج بقوّة أخذت تتضاءل بالتدريج.. شعر بيأس قاتل وبرغبة في البكاء.. ((أهكذا ستكون نهايتي؟ يجب أن أخرج من هذه الفتحة الضيقة.. يجب)). حاول من جديد، دون نتيجة.. وفجأة شعر بحيوان يمزق رجله وقد كان جسمه منقسماً إلى قسمين، العلوي خارج الفتحة والسفلي داخلها.. حرّك رجله بقوة وخوف، وبذل جهداً إضافياً في دفع نفسه إلى الخارج وقد ازدادت الجرذان تكاثراً فوق رجليه تنهش لحمه.. وتمكن أخيراً وهو يشعر بآلام لا تطاق من الخروج من الفتحة وقد ضاق نفسه، فتدحرج جسمه بين أكوام من الحجارة وفقد الوعي..

صحا على أشعة الشمس الحارّة، وكان يشعر بآلام شديدة في رجليه.. رأى نفسه وسط أكوام من العظام والجماجم، فنهض وهو يحس بالغثيان يسير متهالكاً نحو الأعلى ولكن ضجة وأصوات مجموعة من الناس وصلته، فزحف نحو حفرة قريبة وطمر نفسه بالعظام وهو يكاد يفقد الوعي من جديد من الرائحة الكريهة.. وصله صوت عباس..

– مستحيل أن يستطيع الخروج من الفتحة، إنها ضيقة جداً، إنها فخ وقع فيه الكثيرون غيره.

– ولكن لنفرض أن هذا المستحيل حدث يا سيدي؟

– وماذا يفعل الحارسان هنا؟ سيقضيان عليه فوراً..

سمع عماد صوتاً أجشاً:

– لن تستطيع ذبابة الإفلات منّا يا سيدي..

– أعلم أنكما جديران بالثقة.. راقبا المسالك جيّداً، سأرسل لكما طعاماً لذيذاً.. وملابس جديدة عند الظهر..

– هل ستقابلنا سيدتي في الموعد المحدد؟

– نعم لا تقلقا.. ستصبحان من رجالي في الداخل..

ابتعدت الأصوات عن عماد الذي ظل في مكمنه وقد أمضّه الجوع والعطش والتعب ثم سمع صوت الحارسين يتحادثان وهما يقتربان من مكانه:

– أنا متأكد أن لا أحد خرج من هنا..

– وأنا أيضاً.. ولكن لا بأس من الحذر..

– أتعلم.. أحلم باليوم الذي أرى فيه السيدة ، يقال أنها تدلل رجالها كثيراً.

– وكيف ستدللك يا أحمق؟

– بالهبات والأعطيات طبعاً..

– لست أفكر بذلك، أحلم أن أتنسم أنفاسها، أعيش معها تحت سقف واحد.. يقال أن عباساً كان أحد عشّاقها..

– أمعقول!؟

- إنها تحب الرجولة وتتعشق الرجل القوي.. آه.. لو أمتلكها يوماً.. أمتلكها لليلة واحدة وأموت.

شاركه رفيقه في الرأي وهو يضحك وبدأ حديثهما يتخذ منحى آخر، عرف عماد منه أنهما كانا في السجن، واشتغلا مع عباس في بعض المهمات، وهو الآن راضٍ عنهما تماماً..

غفا عماد وهو في مكمنه رغم الرائحة الكريهة وإحساسه بالغثيان.. وحين صحا كان الظلام قد خيّم على المنطقة.. ولم يسمع صوتاً ينبهه بوجود أحد.. فنفض العظام عن جسمه بحذر، وأخذ يزحف بهدوء نحو أعلى السفح.. عادت آلام رجليه إليه، وازداد إحساسه بالعطش والجوع، وبعد وقت عدّه عماد دهراً وصل إلى منطقة آمنة بعيداً عن أكوام العظام الكريهة، سار بهدوء على جانب الطريق وهو ينظر حوله بحذر.. حتى ابتعد كثيراً عن المنطقة التي خرج منها.. وسمع خرير المياه

في الوادي.. فهبط نحو النهر متدحرجاً وألقى نفسه فيه.. أنعشته المياه الباردة.. وشرب كثيراً منها.. ثم خرج وتمدد على شاطئ النهر، يتنفس بعمق وقد شعر بحلاوة الحياة.

استعاد الأحداث التي جرت له، الأحداث الغريبة التي قد لا يصدقها أحد.. ورأى نور سيارة قادمة على الطريق، فصعد نحوها بقدر ما استطاع من سرعة ولكنه لم يدركها. فجلس على جانب الطريق وهو يشعر بالبرد، كانت (منامته) الحريرية المبللة بالمياه قد التصقت بجلده وغطّت الدماء النازفة من رجليه.. وأوقفتها.. وبعد انتظار طويل رأى ضوء سيارة قادمة، فأوقفها، ورغم استغراب الرجل الذي يقودها لهيئته، فقد أشفق عليه وأوصله إلى بيت أحد أصدقائه الدارسين في كلية الطب. فتح الشاب الباب فرأى عماد بتلك الهيئة المزرية، فارتعب في البداية:

- عماد.. ماذا حدث لك؟ معقول!؟

- أرجوك.. أنا في ورطة شديدة..

- عجيب.. ما الذي دفعك للاختفاء طوال تلك الفترة؟ الشرطة تبحث عنك في كل مكان.. وأهلك قلقون عليك، والبعض اعتبرك في حكم الميت..

- أرجوك يا عاصم أنا جائع جداً.. ومتعب جداً..

- سأحضر لك الطعام حالاً..

أكل عماد بشراهة، واعتذر عن الإجابة على أسئلة عاصم، فهو متعب جداً، وفي الغد سيحكي له كل شيء..

- هيا أبلغ الشرطة بوجودك هنا، أو على الأقل أحد أفراد عائلتك الذين ما زال بعضهم يقيم في الفندق منتظراً خبراً منك..

- لا يا عاصم.. ليس الآن.. أنا متعب أرجوك.. كل شيء سيكون واضحاً لك في الغد عندما أستيقظ، افعل

ما تريد.. ولكن ليس الآن.. ليس الآن.. أرجوك..

غفا عماد على سرير عاصم بعدما غيّر ملابسه.. كان من الواضح أنه متعب لدرجة غير عاديّة.

* * *

الفصل العاشر

عندما صحا عماد بعد ظهر اليوم التالي، كان البيت خالياً إلا من والدة عاصم. تناول عماد طعامه وسط عنايتها، وارتدى ثياباً انتقاها من ثياب صديقه وخرج بعدما أكد لها أنه لن يطيل الغياب.

اتجه عماد صوب القصر في الطرف الآخر من المدينة، وليس في جيبه فلس واحد إذ خجل أن يطلب مالاً من والدة عاصم.. ومشى مسرعاً وقد اختلجت في ذهنه مشاعر متناقضة..

استغرقت المسافة من منزل عاصم حتى القصر نحو ساعة ونصف، وكانت الشمس قد جنحت للمغيب في الرابع عشر من أيار ذلك العام.. جلس في منطقة مطلّة على الباب الحديدي ينتظر ((لن أتزحزح من هنا، قد تخرج الليلة للسهر.)). كان الوقت يمر بطيئاً ثقيلاً، وفي

نحو الساعة العاشرة، اقتربت سيارة فارهة من القصر وتوقفت أمام باب سوره الخارجي، ورأى عندها أميرة تخرج من الباب بكامل أناقتها حيث خرج رجل سمين من خلف مقود السيارة يستقبلها بحرارة، وهو ينحني مقبلاً يدها حيث فتح لها الباب إلى جواره، وأغلقه حالما جلست ثم جلس قربها وانطلق بسيارته متلفتاً إليها طوال الطريق تحت بصر عماد الذي تابع السيارة حتى اختفت.

اقترب عماد من القصر، أطلّ على الشقة الصغيرة فرأى الأنوار تشع داخلها، ألحت عليه فكرة مقابلة الشابين اللذين يسكنان تلك الشقة وتحذيرهما من مصير أسود ينتظرهما، ولكنه استبعد الفكرة، سيمضي في مخططه حتى النهاية وعند ذلك لن تكون هناك حاجة لتحذير أحد من سطوة سيدة القصر..

انزوى عماد على مقربة من الباب الحديدي للقصر، وقد خلق فيه التعطش للانتقام قوة هائلة وشردت به

الأفكار بعيداً.. ثم أطبق عليه النعاس فنام.. كانت أميرة تبكي وهي تقترب منه:

– اغفر لي يا عماد، أنا أحبك..

– أيتها الشيطانة الشريرة لن أرحمك..

– عماد لا تتهور، سيقتلك رجالي.. أنا خائفة على شبابك.. لا تضيع نفسك يا حبيبي..

رأى نفسه فجأة فوق جبل عالٍ شديد الانحدار، كانت أميرة تقف معه وفجأة دفعته وهي تقهقه وقد بدت أنيابها الطويلة خارج فمها.. تدحرج على السفح بين الجثث، أوقفه عباس ولوّح له بسكين ثم انهالت عليه سعدى بالسياط.. ورأى عادلاً يخرج فجأة من بين الجثث بأيدٍ مقطوعة وهو يصرخ:

– أنقذني يا عماد.. أنا أموت..

صحا عماد مرعوباً، كانت الساعة تقارب الواحدة والنصف، ولم تعد أميرة إلى القصر بعد..

- آه يا إلهي أعنّي..

عاودته صورة عادل فشعر بالحاجة للبكاء.. ولكن ضوء السيارة القادمة أيقظه من شروده، توقفت السيارة على بعد أمتار من مكمنه، وهبطت منها السيدة بعدما تبادلت القبلات مع صاحبها، ولوّحت له وهي تخرج المفتاح لتضعه في القفل.. انفتح الباب.. وتحرّكت السيارة مبتعدة.. وقبل أن تغلق الباب انقضّ عماد عليها يشد على خناقها:

- عماد.. أنت..

- نعم جئت للقصاص منك..

- عماد حبيبي، أرجوك..

تحشرجت الكلمات في صدرها وعماد يضغط بتشفٍّ على عنقها، وهي تحاول المقاومة دون نتيجة. فتح باب الشقة الصغيرة واندفع شاب نحو الباب الحديدي، ووقف مدهوشاً وقد صرخ به عماد:

- ابتعد من هنا.. دعني أصفي حسابي مع هذه الشيطانة القذرة..

كان وجهها يتلوّن، ازرقَّ في البداية ثم اخضرَّ واصفرَّ، وأخذ يتجعّد بطريقة غريبة وازدادت بشاعته وقد لفظت أنفاسها..

كانت تترهل بسرعة خارقة حين فتح باب القصر واندفعت العجوز سعدى نحوها وهي تصرخ:

- سيدتي، معبودتي.. لا... لا..

ولكن عماد ألقى الجسد المشوّه صوبها:

- خذي سيدتك يا حمقاء..

سقطت أميرة بين يدي العجوز جثة متفسخة وقد شاخ بدنها بسرعة.. التمَّ الخدم من كل صوب، كانت جثة سيدتهم مشوهة المعالم قبيحة كأنها خارجة من قبر عتيق تحيط بها ألبسة فاخرة.. ورغم العطر الثمين فقد صدرت رائحة التفسخ الكريهة من الجثة الملفوفة

بأناقة..

كـان الجميـع مندهشـين حـين انطلـق عمـاد يصـرخ بهسـتريا مبتعداً عن القصـر ((قتلتهـا.. قتلتهـا..)). أمـا القصر فكان ينوح على فقدان سيدته..

ولم تمضِ تلك الليلة إلا وانـدلعت النيـران تأكل القصر.. وقال أحد الشابين اللذين يسكنان الشقة الصغيرة أنـه رأى الخادمـة العجـوز تضـرم النـار فـي القصـر وهـي تضـحك وتبكي بهستريا مخيفة.

قبض على عماد ووضـع فـي مصـحّ للأمـراض العقليـة، بعدما ضـايق صـراخه النـاس، ورأوه مصـاباً بجنـون مـؤذٍ كما كتب في التقرير..

أمـا مـا حـدث فظلَّ سـرّاً لا يعرفـه أحـد.. حتـى أخضـع عماد لجلسات الطبيب النفسي فاكتشف الطبيب بعد أن نوّمـه مغناطيسـياً أن عمـاد قـد شـهد أحـداثاً أغـرب مـن الخيـال.. ولكنـه اقتنـع بصـحتها رغم أن الكثيـرين رفضـوا

تصـديقها.. وحـين رفـع الطبيـب تقريـره للشـرطة تطـابق التقرير مع ما جاء في ملفات اختفـاءات مجهولـة لشبّان في مقتبل العمر قيّدت حوادث اختفـائهم ضد مجهول.. ورغم ذلـك فقـد ظـل تركيـب الإكسـير الـذي يحـافظ علـى الشـباب لغـزاً بعـدما انتشـلت جثـث متفحمـة مـن بـين الأنقاض قيل أن إحداها لشيخ متقدم فـي السن انفجرت فيه محتويات مختبر كيميائي.

الفهرس